أثر دلالات السياق في توجيه الطباق (دلالات الحركة والثبات أنموذجاً)

إعداد
الدكتور/عدي خالد محمود البدراني
كلية العلوم الاسلامية
جامعة الفلوجة
الانبار _ العراق

المستخلص:

يدرس البحث تقنيات اللغة العربيّة، التي تُنتج دلالات متضادّة داخل السياق، دلالات لا تُنتجها مجموعة أصوات في لفظ ما، وإنّما تشترك مجموعة من الألفاظ في إنتاجها، ضمن نظم مخصوص. ممّا يعني ظهور طرفين من الدلالات على نحو يُشاكل – في مجمله – دلالات الطباق، بوصفه فنًّا بلاغيًّا عربيًّا، تقوم ماهيّته على تقابل معنيي لفظين في التركيب. وبذلك نكون قد عممنا ماهيّة فن يُعنى بدلالات اللفظ على دلالات السياق عمومًا.

وعندما كان السياق محور بحثنا رأينا أن يكون حقل الدراسة مخصوصًا في النصّ القرآني؛ بوصفه نصًّا محكمًا دلاليًا، الأمر الذي يمكننا من الوصول الأمثل إلى ماهيّة الطباق السياقي – الذي نحن بصدد البحث فيه – عبر تتبع الظواهر والأساليب اللغويّة التي تحققه.

وعندما كانت هذه الدلالات متعدّدة، ومتنوعة آثرنا اختيار حقل منها، وتحديدًا " دلالات الحركة والثبات"، ليس بوصفهما يشكلان ضربا من الطباق الصريح، وإنما لكو

نهما يشتملان على تقنيّات لغوية متعدّدة، مكّنت البحث من التعرض لأنماط متغايرة من الدلالات.

وقد تناول البحث دراسة جملة من هذه التقنيات، وتوصل إلى جملة من النتائج، التي بموجبها نكون قد أثبتنا مصطلحا بلاغيًّا جديدًا، وهو "الطباق السياقيّ".

ABSTRACT

Find taught Arabic language technologies, which produce opposite connotations within the context, the implications are not produced by the group Voices in the word, but also share a set of words in their production, within the ad hoc systems. Which means the emergence of a mutually indications about Ichakl - in its entirety - Icon counterpoint, as an art rhetorical Arab world, based on what it corresponds to Mnia Fezan in the installation. We have thus generalize what art means connotations word on semantics context generally.

When the context was the focus of our research we have seen that the field of study in a tailored Quranic text; as an arbitrator Tagged text, which enables us to reach the perfect counterpoint to what contextual - that we are going to search - by tracking the phenomena of language and methods that bring.

When these signs multi, variety, we chose to choose a field of them, specifically the "indications of movement and stability," not as constitute a form of counterpoint outright, but for being encompassing the multi-linguistic techniques enabled the research of exposure heterogeneous patterns of connotations.

Find the study of a number of these techniques have been dealt with, and reached a series of results, under which we have demonstrated new rhetorical terms, a "contextual counterpoint."

المقدّمة

بات من المعلوم لدى القدماء أنّ معاني العربيّة –عمومًا– على مستويات، فقالوا بـ (المعنى، ومعنى المعنى، ويعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى، ثُمّ يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر)[1]، وهذا المفهوم – وبالإفادة من معطيات الدرس اللغوي والدرس النقدي الحديثين – يجعلنا نتصور مستويات متعددة للمعاني، نذكر منها:

– ما يختصّ بالحروف، وهو ما اهتم به النحاة في باب معاني الحروف.

– ما يختصّ بالألفاظ، وهو على قسمين:

أ . المعاني المعجميّة للألفاظ، أي معاني الألفاظ قبل دخولها في سياق محدّد، فاللفظ ليس له معنى محدّد قبل دخوله في سياق محدّد. وإنّما له معان عدّة، يسميها البعض بـ"الحقول الدلاليّة" [2] للألفاظ، الأمر الذي جعل البعض يرفض المستوى السابق من المعاني، ويقول ليس للفظ معنى إلا بعد دخوله في سياق محدّد.

ب . معاني الألفاظ بعد دخولها في سياق محدّد. وفي هذا المجال يقول الجرجاني: (إنّ الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يُضمّ بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينهما فوائد)[3]. تمثل دلالاتها داخل السياق. بل يذهب بعض الباحثين إلى أنّ (نسبة كثير من الكلمات لا يتضح معناها المحدّد إلاّ باستعمالها إلى جانب غيرها، ومن الصعب أنّ نستدلّ على معناها بغير استرشاد بالكلمات المحيطة بها)[4]. على أن يكون المعنى مختصًّا باللفظة وحدها، على الرغم من تحديد السياق لهذا المعنى، أي إنّ وظيفة السياق هنا تتمثّل بتحديد معنى واحد من المعاني المتعددة للفظة الواحدة، على وفق ما سبق ذكره.

– ما يختصّ بالتراكيب، والأساليب اللغويّة والنحويّة.

– ما يختصّ بالسياق عمومًا، فالمعنى (لا يقف عند الكلمات المفردة؛ لأنّ الكلمات ما هي إلاّ وحدات يبني منها المتكلمون كلامهم)[5]، وهنا يبرز أمران غاية في الأهميّة: الأوّل "نظم" النصّ الواحد، وقابليّته على إنتاج عدد من الدلالات، وهو ما يُسمى بظاهرة "التوسع بالمعنى". والأمر الآخر "تأويل" المتلقّي، وقدرته على إدراك هذه الدلالات.

---

(1) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت:471هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط3، 1413هـ - 1992م، ج1، ص263.

(2) ينظر: علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربيّ، منقور عبد الجليل، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2001م، ص76.

(3) دلائل الإعجاز 539/2..

(4) من قضايا اللغة والنحو، د. أحمد مختار عمر، ط1، عالم الكتب، 1974م، ص5.

(5) المصدر نفسه.

وعندما نتكلم عن قابليّة النصّ على إنتاج عدد من الدلالات يعني كلامنا عن قدرة القائل البيانيّة، الأمر الذي جعلنا ننصرف في دراستنا هذه إلى النصّ القرآني حصرً؛ الذي يُنتج دلالات متقنة، مقصودة، تحدّى الله عباده بها، بمعنى أنّ الإعجاز مصاحب للنظم فحسب، أي إنّه تعالى تحدّى عباده وأثبت عجزهم على الإتيان بمثل هذا القران، ولكن لم يتحداهم في "تأويله" وإدراك دلالاته. وإنّما جعل هذا الإدراك مقسومًا على عباده، الذين شاءت مشيئته أن يكون لهم نصيبًا منها، وهو ما يُسمّى بظاهرة "الفهم الخاص". وهنا يمكن الإشارة لقضية قديمة وهي "الصرفة" [1]، التي قال بها بعض القدماء، ورفضها البعض الأخر، وأبرز من رفضها من القدماء الجاحظ، إذ (لم يتابع أستاذه النظّام في قوله بالصرفة تفسيرًا للإعجاز، وإنّما وجد أنّ الإعجاز لا يفسّر إلاّ عن طريق النظم) [2]. فلو كان إعجاز العباد بوساطة صرفهم عن ذلك لما كان هناك إعجاز أصلًا. و إذا كان للصرفة مكان في ما نحن بصدده فيمكن أن تكون – بحسب ما أرى – في مجال التأويل وليس في مجال النظم. وبهذا تتمثل مظاهر الإعجاز في "النظم"، الذي ينتج توسعًا في المعنى، كما تتمثل مظاهر الصرفة في "التأويل"، الذي ينتج فهمًا خصًّا للنصّ، والله تعالى أعلم.

والكلام في حقل التأويل يعود بنا إلى موضوع دراستنا، وتحديدًا إلى تسليط الضوء على دراسة دلالات السياق، ولكن من زاوية قد تكون مختلفة عمّا سبق؛ لأنّنا نطمح إلى تعميم معنى خاص بمعاني الألفاظ على ما هو خاصّ بالسياق. وتحديدًا معنى "الطباق" الذي طالما ألفناه ملازمًا للألفاظ – أسماءً أو أفعالا – فمعنى الضدّ الذي يحددّه كلٌّ من معنيي لفظين قد يحققه سياق بكامله، فالمعاني المتضادّة التي ينتجها سياق معين يمكن أن تحقق ما نرمي إليه في مفهوم "الطباق السياقيّ".

وأخذت الدراسة طريقها لتحقيق هذه الغاية عبر البحث عن سبل تحقيق هذا المفهوم، وتحديدًا دلالات الثبوت المتأتّية من الجمل الاسميّة، ودلالات الحركة وعدم الاستقرار، المتأتّية من الجمل الفعليّة. على أنّ هذه السبل لها معان متعدّدة، توسّع بها أهل اللغة والنحو،أمّا دراستنا هذه فتسلط الضوء على ما يحقق "الطباق السياقيّ".

أمّا عن أنواع الطباق التي تعنى به دراستنا فهي من قبيل طباق الإيجاب، وطباق السلب فحسب. أمّا الأنواع الأخرى [3] من الطباق فقد استبعدناها من الدراسة؛ لشموليّة هاذين النوعين، وشيوعهما في القران الكريم عمومًا.

---

(1) الصرفة: (مذهب بعض المعتزلة والشيعة، حيث قالوا صرف الله همهم عن الإتيان بأقصر سورة منه، مع تمكنهم منه). الشفا بتعريف حقوق المصطفى، أبو الفضل عياض السبتي، (ت544هـ)، دار الفيحاء، عمان، ط2، 1407هـ، ج1، ص 740.

(2) المصدر نفسه 98.

(3) للوقوف على أنواع الطباق المختلفة ينظر: البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حبنّكة، دار القلم بدمشق، ودار الشاميّة ببيروت، ط 1، 1996م، ج2، ص377 وما بعدها. وينظر: علم البديع دراسة تاريخيّة لأصول البلاغة ومسائل البديع، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار، ط2، 2004م، ص112 وما بعدها.

تمهيد في أهميّة الطباق وأثر السياق في توجيهه

إنّ من أهم تقنيّات الطباق في البيان العربي ما يمكن أن يُلحظ من (تداعي الأفكار في الأذهان، باعتبار أنّ المتقابلات أقرب تخاطرًا إلى الأذهان من المتشبّهات، والمتخالفات) [1]، وبهذا يكون فنّ الطباق وسيلة فاعلة في إذكاء ذهن المتلقّي لإدراك الدلالات، الأمر الذي يجعله وسيلة فاعلة من وسائل التعبير، و ليس من المحسنات البديعيّة فحسب[2].

أمّا عن ماهيّة الطباق فقد شاع في المتون البلاغيّة أنّه يعني (الجمع بين الشيء وضدّه، في جزء من أجزاء الرسالة، أو الخطبة، أو البيت، من بيوت القصيدة، مثل الجمع بين البياض والسواد، والليل والنهار، والحرّ والبرد) [3]، وهذا يعني أنّ دلالات الألفاظ المفردة تكاد تكون الجهة الوحيدة التي بوساطتها يتحقق الطباق.

على أنّ هذه الدلالات إمّا أن تكون معجميّة، وهي ما تكرر ذكرها في هذه المتون، وإمّا أن تكون مجازيّة، وهي ما توقّف عندها بعض علماء البلاغة، وعدّها من قبيل "الطباق المعنوي"، ومنه قوله تعالى: («أقلعي وابلعي»؛ لأنّ المعنى في بلع الأرض، إنما هو إدخاله في جوفها، وإقلاع السماء، وهو إخراجه عنها، وهذا تطبيق من جهة المعنى، ومن جهة أنّ الإدخال والإخراج ضدّان، وهذا كقوله تعالى أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ؛ لأن الرحمة هي لين القلوب وتعطفها، وهو ضدّ الشدة)[4].

وفي كلا الحالين لا يخرج مفهوم الطباق عن دلالة اللفظ، بل ربّما لا نجانب الصواب إذا قرّرنا أنّ البلاغيين العرب توقفوا فقط عند هذا المفهوم، وتحديدًا على مستوى التطبيق؛ لأنّهم على مستوى التنظير ذكروا أنّ الطباق يعني (الجمع بين معنيين متقابلين في الجملة، سواء كان التقابل على جهة التضاد، أو السلب والإيجاب)[5]، فمجرّد الوقوف عند "تقابل المعنى في الجملة" يجعلنا لا نكتفي بتقابل الألفاظ المتضادة – كما شاع في دراسات العرب– وإنّما الانفتاح على دلالات النصّ، ولاسيّما إذا علمنا أنّ (قيمة التضاد الأسلوبية تكمن في نظام العلاقات الذي يقيمه بين العنصرين المتقابلين، وعلى هذا فلن يكون له أي تأثير ما لم يتداع في توال لغوي) [6]. بمعنى أنّ دلالتي الطباق المتقابلتين في التركيب يمكن أن تتشكلان بوساطة

(1) البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها، 378/2.
(2) البلاغة العربية، د. أحمد مطلوب 285.
(3) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري (ت نحو 395هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت، 1419 هـ، ص 307. وينظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة الحسيني العلويّ (ت745هـ)، المكتبة العنصرية، بيروت، ط1423،1 هـ، ج3، ص137.
(4) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي (ت 745هـ) المكتبة العنصريّة، بيروت، ط 1، 1423هـ، ج3، ص138.
(5)الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، المعروف بخطيب دمشق (ت 739هـ) تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط3، ج3، ص185.
(6) علم الأسلوب – مبادئه وإجراءاته، د. صلاح فضل، كتاب النادي الأدبي الثقافي، جدّة، 1988م: 256.

دلالات بنية النصّ، والعلاقات القائمة بين أجزائه، وهذا يجعلنا نتأمّل تقنيات اللغة –عمومًا– ودلالاتها، بما في ذلك توجيه السياق لدلالة لفظ من ألفاظه، أو تراكيبه، وبهذا يكون للسياق دور فاعل في تحديد دلالات الطباق بين ألفاظه[1] من جهة، وإنتاج المحاور الدلاليّة المتقابلة داخل التركيب من جهة أخرى، الأمر الذي يستوقفنا في دراستنا هذه، ويجعلنا نلاحق هذه الدلالات والوقوف عليها من جهة، ورصد سبل إنتاجها من جهة أخرى.

المبحث الأول

دلالات الحركة والثبات المتأصلة في الجمل العربيّة

من المعلوم أنّ (الجملة الاسميّة تفيد بأصل وضعها الثبوت... والجملة الفعلية تفيد الحدوث... وعدم الاستقرار)[2]، ومن هنا يكون التعبير عن دلالة ما بوساطة الاسم الصريح تارة، وبوساطة الجملة الفعليّة تارة أخرى، والسبيلان يحققان طرفي الطباق، كما في قوله تعالى: (وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[3]. يلحظ أنّ لفظ (كلمة) في التركيب الأول يكون مفعولًا به، فهو في سياق الجملة الفعليّة، وهنا حضور دلالة التحويل، بمعنى سيذلّ الكافرون بتحويل علوّ كلمتهم في الدنيا لتكون السفلى. أمّا التركيب الآخر فجاء بوساطة الجملة الاسميّة ليكون لفظ (كلمة) مبتدأ، بمعنى ثبوت علوّ كلمة الله تعالى، بمعنى أنّ اختلاف التركيبين بين الاسميّة والفعليّة يدلّ على تحوّل كلمة الكافرين من العلو – بنظر أهل الدنيا– لغير العلو (السفلى). أمّا التركيب الآخر فيدلّ على ثبات علو كلمة الله تعالى.

ومن أشكال تحقيق الطباق السياقيّ بوساطة المناوبة بين الاسم والفعل نذكر قوله تعالى أيضًا: (قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ) [4].

وهذا الكلام جاء على لسان الشاهد، الذي حكم بين امرأة العزيز وسيّدنا يوسف "عليه السلام"، وفيه يذكر أربعة أصناف من الناس: اثنان يُتصفون بالصدق، أحدهما أشير إليه بالاسم، والآخر أشير إليه بالفعل. واثنان يتصفون بالكذب، أحدهما أشير إليه بالاسم، والآخر أشير إليه بالفعل أيضًا، ومعلوم أنّ "الصادق" أعلى رتبة ممّن صَدَقَ؛ لأنّ الاسم يدلّ على الثبات، ممّا يعني أنّ هذا السمة متأصلة فيه أكثر ممّن عُبر عنه بوساطة الفعل. والعكس بالعكس، يعني أنّ "الكاذب" أدني رتبة ممّن كَذَبَ؛ للسبب نفسه. وبهذا يمكن أن نتصوّر أربعة مستويات: "صادق، صدَقَ، كذَبَ، كاذب" على الترتيب. وعلى وفق هذا التصوّر تكون المسافة

(1) ينظر: الأسلوبية وتحليل الخطاب، د. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، 2002م: 102.
(2) الإيضاح في علوم البلاغة، 114/2.
(3) سورة التوبة 40.
(4) سورة يوسف 27-27.

بين الطرفين في كلا الاحتمالين واحدة، ولكن السؤال الأهمّ الذي لا يغفل عنه المتدبّر للقرآن: أنّه عبّر عن سيّدنا يوسف بالاسم بكلا الحالين، وعبّر عن امرأة العزيز بالفعل بكلا الحالين أيضا.

وللوقوف على دلالة هذا التعبير نقول ومن الله التوفيق: إنّ الرجل – حسب ما يرى "الشاهد" في الآية الكريمة – أثبت من المرأة في الخلق، سواء أكان خلقًا حميدًا أم مذمومًا، وهنا سيطرح تساؤل آخر، مفاده: هل هذا الأمر مقرون بالحادثة فحسب، أو إنّه حكم يعمّم على سائر الخلق – أعني مبدأ أنّ الرجل أثبت من المرأة – والحق أنّ في الآية ما يشير إلى إمكانيّة تعميم هذا المبدأ؛ لقوله تعالى: (فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) [1]، فقوله "من كيدكنّ" يوحي بهذا التعميم؛ فهو يشير إلى كيد النساء عمومًا، والله أعلم.

من هذا كله يتبيّن تحقق دلالتي الطباق السياقيّ، وهما "الثبات، وعدمه" وهو طباق سلب. على أنّ طباق الإيجاب الصريح، الذي مفاده "الصدق والكذب" بمعزل تام عن الطباق السياقيّ.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى على لسان سيّدنا سليمان مخاطبًا الهدهد: (قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) [2].

إذ جاء احتمال صدق الهدهد بصيغة الفعل، وجاء احتمال كذبه بصيغة الاسم، ويمكن أن تكون دلالة ذلك أنّ السياق في معرض اعتذار المقصّر لسيّده، وهذا موقف كثيرًا ما يصاحبه الكذب، فالمحكوم طالما يلجأ للكذب في التبرير، والاعتذار للحاكم؛ طلبًا العفو والرضا، الأمر الذي دلّ عليه الاسم الدالّ على الثبات، ومن ثمّ التعبير عن هذه الكثرة. ينما يندر أن يكون المعتذر صادقًا، لذا جاء الفعل الدالّ على الحدوث، ومن ثمّ التعبير عن هذه الندرة، والله أعلم.

قال تعالى على لسان امرأة العزيز تخاطبه:... (مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [3]. يلحظ أنّ التعبير عن السجن جاء بوساطة الفعل، ومعلوم أنّ صِيغَةَ الْفِعْلِ لَا تُفِيدُ الدَّوَامَ، وَصِيغَةُ الِاسْمِ تُفِيدُهُ)[4]، وبذلك يمكن أن يُفهم أنّ فترة السجن مؤقتة، فـ (الْمُرَادُ أَنْ يُسْجَنَ يَوْمًا أَوْ أَقَلَّ عَلَى سَبِيلِ التَّخْفِيفِ)[5].

(1) سورة يوسف 26.
(2) سورة النمل 27.
(3) سورة يوسف من الآية 25.
(4) التفسير الكبير 272/20.
(5) التفسير الكبير 445/18.

قال تعالى على لسان فرعون يخاطب سيّدنا موسى عليه الصلاة والسلام: (قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) [1]. وهنا لم يعبّر فرعون عن السجن بوساطة الفعل، وإنّما ذَكَرَهُ بِصِيغَةِ الِاسْمِ؛ تَنْبِيهًا عَلَى الدَّوَامِ [2]، أي إنّ تهديد فرعون لسيّدنا موسى كان بالحبس الدائم المؤبّد[3].

وقد لا تختلف هاتان الدلالتان عن صيغتي التعبير عن الرجم، لكلٍّ من سيّدنا إبراهيم على لسان أبيه، في قوله تعالى: (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا) [4]. ولسيّدنا نوح على لسان قومه، في قوله تعالى: (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) [5].

والرجم فيه قولان، الأول الرَّجْمُ بِاللِّسَانِ، وهو الشَّتمُ وَالذَّمُّ، والآخر الرَّجمُ باليد، وله وجوه: أَحدُها: لأَرجمنَّك بإظهار أَمرك للنَّاس ليرجموك ويقتلوك. وثانيها: لأَرجمنَّك بالحجارة لتتباعدَ عنِّي. وثالثها: لأَقتلنَّك بلغة قريشٍ. ورابِعُها: الرَّجمُ بالحجارة. إِلَّا أَنَّهُ قَد يقالُ ذلك في معنى الطَّرد والإِبعاد اتِّساعًا، ويدلُّ على أَنَّهُ أَراد الطَّردَ قولُهُ تعالى: واهجرني مليًّا، والرَّجم هو الرَّميُ بِالرِّجام فحمْلُهُ عليه أَولَى(6).

بمعنى أنّ أبا سيّدنا إبراهيم عليه السلام قد توعّده بالرجم المؤقت – على اختلاف الأقوال في معنى الرجم – وسرعان ما يشير إلى ذلك بقوله: واهجرني مليّا، و(مَلِيًّا أَيْ مُدَّةً بَعِيدَةً) [7]، وبذلك يُستبعد معنى التأبيد من السياق، حتى إذا افترضنا أنّ الطرد هو المراد من الرجم. على خلاف الحال في توعّد قوم سيدّنا نوح عليه السلام له بالرجم الدائم على ما يبدو، ومن ذلك كلّه يتشكّل مظهر من مظاهر الطباق السياقي، ودلالتاه "الديمومة وعدمها"، والله أعلم.

ومن دلالات الاسم والفعل قوله تعالى أيضًا: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ) [8].

إذ جاء جزاء الوالد لولده بوساطة الفعل "يجزي"، وجاء جزاء الولد لوالده بوساطة اسم الفاعل "جاز"، ولا شك أنّ الاسم أثبت في الدلالة، ممّا يدلّ على أنّ الولد أكثر استعدادًا وقابليّة على الجزاء؛ من باب الوفاء من جهة، ولقدرته التي فطره الله عليها من جهة أخرى، فالوالد يرعى ابنه سنوات معدودات، بينما الولد يرعى أباه سنوات ربّما تكون أكبر عددًا، ثمّ إنّها غير معلومة الأجل، على خلاف سنوات رعاية الوالد لابنه، والله أعلم. وبذلك يتحقق الطباق السياقيّ، على غرار ما تقدم.

(1) سورة الشعراء 29.
(2) التفسير الكبير 272/20.
(3) ينظر المصدر نفسه 18/ 445.
(4) سورة مريم 46.
(5) سورة الشعراء 116.
(6) ينظر: التفسير الكبير 21/ 456.
(7) التفسير الكبير 21/ 456.
(8) سورة لقمان 33.

ومن دلالتي الاسم والفعل قوله تعالى أيضًا: (ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى) [1]. وقوله تعالى: (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [2].

ففي الآية الأولى الفعل "اهتدى" وفي الأخرى الاسم "المهتدين"، وللوقوف على الدلالتين نعود أولا إلى السياق الذي يسبق الآية الأولى، وتحديدًا في قوله تعالى: (فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) [3].

ففي قوله "عن من تولى" يتبيّن أنّ الخطاب يختصّ بغير المؤمنين، وبالتالي فإنّ السياق جاء للتعبير عن الضلالة والهداية على السواء ؛ إذ قال "ضلّ، اهتدى".

أماّ سياق الآية الأخرى ففيه موازنة بين أهل الحق وأهل الباطل، والآيتان السابقتان لهما تدلّان على ذلك، إذ يقول تعالى: (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) [4]. بمعنى أنّ الحديث عن المؤمنين وعن غيرهم، على حدٍّ سواء، لذا يمكن أن يكون الفعل "ضلّ" للتعبير عن حال غير المؤمنين خاصّة، كما يمكن أنّ يكون الاسم "المهتدين" للتعبير عن حال المؤمنين خاصّة. على خلاف الحال في الآية السابقة؛ إذ التعبير عن غير المؤمنين بكلا الحالين. وللموازنة بين الصورتين نذكّر بدلالة الاسم على ثبوت الصفة بصاحبها، فقولنا "مهتدٍ" تدلّ على ثبوت الهداية في صاحبها، ونذكّر أيضًا بعدم دلالة الفعل على هذا الثبوت، فقولنا "اهتدي" تدلّ على أنّ هذه الصفة قد تكون طارئة على صاحبها، غير ثابتة فيه. وبهذا يمكن أن يدلّ الاسم على تزكية حال المؤمنين، في حين لا يدلّ الفعل على هذه التزكية، وبالتالي يتحقق الطباق السياقيّ، وهو طباق سلب، والله أعلم.

ومن أشكال رصد الطباق السياقيّ بوساطة المناوبة بين الاسم والفعل ما يصورّه القرآن الكريم مِن حال مَن يُتّصف بالإيمان، والإيمان درجات ورتب – كما هو معروف – منه ما يكون في بداية طريق الهداية، ومنه ما يصل إلى مرتبة يزكيها ربُّ العزة، ويثني عليها، وللاسم دور فاعل في تحقيق هذه الدلالة، إذ يقول تعالى "الذين آمنوا" في بعض آي القران الكريم، ويقول "المؤمنون" في بعض آخر، يعنى ورود معنى الإيمان بالفعل تارة، وبالاسم تارة أخرى، ومن ذلك قوله تعالى في مواطن الأوامر والنواهي: "يا أيها الذين آمنوا" وظاهر الحال يدلّ على أنّ هؤلاء الناس لا يزالون في طريق الهداية، بمعنى أنّ من يتلقى الأوامر والنواهي لا

(1) سورة النجم 30.
(2) سورة النحل 125.
(3) سورة النجم 29.
(4) سورة النحل 123-124.

يزال في مرتبة لا تستحق التزكية، ممّا يبرّر التعبير عنهم بوساطة الفعل، يستثنى من ذلك قوله تعالى: (لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ) [1]، ففي الوهلة الأولى يبدو السياق مخالفًا لما ذكرنا قبل قليل؛ لأنّ التعبير عن المؤمنين جاء بصيغة الاسم، على الرغم من كونه بمعرض النهي، ولكن سرعان ما يتلاشى هذا الظن، عندما نعلم أن هذه الآية الكريمة نزلت بحق نفر من أهل الأنصار[2]، وهم أهل للتزكية، بلا شك.

ويمكن الإشارة هنا إلى قوله تعالى: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) [3]، إذ جاء التعبير بالفعل "الذين امنوا" فلو جاء السياق بالاسم الدالّ على تزكية من نتخذهم أولياء ، لكان أمرًا محالاً؛ لعدم قدرة البشر على تزكية البشر من جهة، ولقلّة عدد الذين يزكيهم ربّنا – نسبة بما يستلزم من ولاة الأمر، الذين أُمرنا باتخاذهم أولياء – من جهة أخرى، والله أعلم.

كما يمكن الإشارة أيضًا إلى قوله تعالى:..(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَايَعْلَمُون)[4]. بمعنى أنّ الله تعالى تكفّل بالعزّة للمؤمنين حصرًا، فلو جاء في السياق عبارة "الذين آمنوا" بدل " المؤمنين" لما وجدنا شيوع أشكال الذل والخنوع التي يرتخ تحتها عدد كبير من اللذين آمنوا اليوم، وهذا يبين لنا جليًّا أنّ التعبير –هنا– بوساطة صيغة الاسم إنّما هو تزكية ربّانيّة لهم، والله أعلم.

من الملحوظ أنّ كلامنا يشتمل على دلالة "الذين آمنوا" بصيغة الجمع، ليبقى مخصوصًا فيه، فلا نعمّم ما ذكرناه على ما جاء منه بصيغة المفرد، كما في قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَة) [5].

ففي هذا النصّ ذكرٌ للمؤمن على ثلاثة أصناف: القاتل، والمقتول، ومن تُحرّر رقبته. ولا يمكن بحال أن يزكى أحد منهم، إلا ما شاء الله، ولهذا نقول ومن الله التوفيق: إنّ ما جاء بصيغة المفرد، على هذه الشاكلة فلا يدلّ على تزكية صاحبه، – فيما نظنّ – أو قد يكون كذلك، ولكن لتوجيه لم نهتدِ إليه، والله أعلم.

ومن الجدير بالذكر أنّ هذا النوع من الطباق يُعنى بذكر طرف واحد منه، ويترك للمتلقي تدبّر الطرف الآخر، وقد تكون هذه الظاهرة سبب ذهاب البعض إلى (أنّ سرّ بلاغة كلّ من المطابقة والمطابقة إنّما هو تداعى المعاني، فالضدّ أو المقابل يجلب إلى الذهن ضدّه أو مقابله؛ لأنّهما متضايفان، ويستند أحدهما على

(1) سورة آل عمران 28.
(2) وقيل إنّها نزلت بحق أحد البدريّين، والأرجح ما تقدم. ينظر: أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري الشافعي (ت 468هـ) تحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدّمام، ط2، 1992م، ص102-103.
(3) سورة المائدة 55.
(4) سورة المنافقين نهاية الآية 8.
(5) سورة النساء من الآية 92.

الآخر)[1]، وذلك على مستوى إدراك دلالة كلّ منهما. بمعنى أنّنا عندما نقرأ في القرآن الكريم ما جاء بصيغة الفعل ينبغي أن نتدبّر دلالة صيغة الاسم، والعكس صحيح، وبذلك نكون أكثر إدراكًا للتعبير القرآني.

وقد يجمع السياق بين الاسم والفعل، كما في قوله تعالى: (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) [2].

للوقوف على دلالة توظيف كلّ من الفعل "حبط" والاسم "باطل" ينبغي – أولاً – إدراك الفرق بينهما من جهة اللغة، فـ (الصنع تَرْتِيب الْعَمَل وإحكامه على مَا تقدم علم بِهِ، وَبِمَا يُوصل إِلَى المُرَاد مِنْهُ، وَلذَلِك قيل للنجّار صانع، وَلَا يُقَال للتاجر صانع؛ لِأَن النجّار قد سبق علمه بِمَا يُرِيد عمله من سَرِير أَو بَاب، وبالأسباب الَّتِي توصل إِلَى المُرَاد من ذَلِك، والتاجر لَا يعلم إِذا اتّجر أَنه يصل إِلى مَا يُرِيدهُ من الرِّبْح أَو لَا، فَالْعَمَل لَا يَقْتَضِي الْعلم بِهِ يعلم لَهُ، أَلا ترى أَن المستخرجين والضمناء والعشارين من أَصْحَاب السُّلْطَان يسمّونَ عمالا وَلَا يسمّونَ صناعًا؛ إِذْ لَا علم لَهُم بِوُجُوه مَا يعْمَلُونَ من مَنَافِع عَمَلهم كعلم النجّار أَو الصَّائِغ بِوُجُوه مَا يصنعه من الْحلِيّ والآلات، وَفِي الصِّنَاعَة معنى الحرفة الَّتِي يتكسّب بها، وَلَيْسَ ذَلِك فِي الصنع. والصنع أَيْضا مضمّن بالجودة وَلِهَذَا يُقَال ثوب صَنِيع)[3]، وبذلك تكون جزء من أعمالنا تتصف بهذا الوصف، أي إنّ العمل أشمل من الصنع؛ على وفق ما تقدّم، وهنا حضور واضح لدلالة (الكلّ والجزء)؛ فلفظ "ما صنعوا" إشارة لفعل ما من أفعالهم، ولفظ "يعملون" إشارة لسائر ما قدموا، وبالتالي فما صنعوا جزء ممّا قدموا، لهذا جاء وصف كلٍّ من الطرفين بما يناسبه: الجزء وُصف بالفعل، والكلّ وُصف بالاسم، وهو تحقيق لدلالة الطباق السياقيّ، والله أعلم.

قال تعالى: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) [4].

الظاهر من النصّ الكريم أنّ (الحقّ سبحانه يختبر مدى صدق الإنسان حين يعلن الإيمان، إنّه – سبحانه – يختبرهم بالمحن والنعم، وقد اختبر الحقّ الأمم السابقة بالتكاليف والنعم والمحن ويظهر ويبرز إلى الوجود ما سبق أن علمه سبحانه أزلاً، ويميز أهل الصدق في الإيمان) [5]. ولكن الملفت للنظر أنّ النصّ الكريم يعبّر عن من توفق بـ"الاختبار" بصيغة الفعل "صدقوا"، ويعبّر عن من لم يوفق بصيغة الاسم "الكاذبين"، وقد ذكرنا أنّ الاسم يدلّ على الثبوت، والفعل يدلّ على الحدوث، وعدم الاستقرار، وإذا ما تأمّلنا الدلالتين في سياق الآية الكريمة نجد إمكانيّة دلالتها على شمول العبد بصفة "الذين صدقوا" بمجرد الثبات في

(1) البلاغة الاصطلاحيّة، د. عبدة عبد العزيز قلقيله، دار الفكر العربي، القاهرة، ط3، 1992م، ص299.
(2) سورة هود 16.
(3) الفروق اللغوية 135.
(4) سورة العنكبوت 2- 3.
(5) تفسير الشعراوي 3651/6.

موقف ما من مواقف الاختبار، بينما لا يُشمل بصفة "الكاذبين" إلا إذا فشل في مواقف عدّة، وبهذا تتبيّن رحمته تعالى للصادقين وإمهاله للكاذبين، وهما دلالتا الطباق السياقي، اللتين يمكن أن تكونا حاضرتين أيضًا في قوله تعالى في السياق ذاته: (وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ) [1]، والله أعلم.

ومن دلالات الاسم والفعل في رصد الطباق السياقي قوله تعالى: (وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ) [2].

معلوم أنّ زمن اللبس أطول نسبيًا من زمن الاتكاء، الأمر الذي يجعلنا ربّما نعبّر عن اللبس بوساطة الاسم، مقارنة مع التعبير عن الاتكاء، الذي ربّما يكون بوساطة الفعل؛ على وفق ما ذكرنا سابقًا. ولكنّ النصّ الكريم يأتي مخالفًا لذلك، ربمّا ليأخذنا بعيدًا عن دلالة الزمن، ويقرّبنا من دلالتي النعيم، فالتعبير عن اللبس بوساطة الفعل المضارع؛ للدلالة على كثرة اللباس وتنوعه. والتعبير عن الاتكاء بوساطة الاسم؛ للدلالة على ديمومة هذه الحال، والحالان يدلان بالنهاية على النعيم. وهنا يتحقق النعيم بوساطة دلالتي "التجدد والثبات"، وهما طرفا الطباق السياقي، والله أعلم.

ومن دلالات الاسم والفعل في رصد الطباق السياقي قوله تعالى بعد ذكر مراحل خلق الإنسان: ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) [3].

في هذا النصّ الكريم يُعبّر عن الموت بوساطة الاسم، وعن البعث بوساطة الفعل المضارع، وهنا نسلط الضوء على دلالة "التدرج بحدوث الفعل"، التي يمكن أن يدلّ عليها الفعل "تبعثون" مقارنة مع عدم وجود هذا التدرج في دلالة الاسم "ميتون". ومعلوم أنّ موت البشر على مراحل عدّة، بدأت بموت ابن أبينا آدم ومستمرّة إلى ما شاء الله، ومعلوم أيضًا أن بعث البشر يوم القيامة يكون جملة واحدة، وهنا ربما تحدث مفارقة بين الدال والمدلول، أي إنّنا ربّنا نتوقع التعبير عن الموت بوساطة الفعل المضارع، والتعبير عن البعث بوساطة الاسم، على خلاف النصّ الكريم، بمعنى أنّنا نعتني – في الموت والبعث – بالشخصّ الذي يموت أو يُبعث؛ بسبب عقلنا القاصر في تتبعه لإدراك الدلالات.

بل إنّ النصّ الكريم ربما يأخذنا بعيدًا عن هذا التأويل؛ لأنّ موت الناس على مراحل، وبعثهم جملة واحدة لا ينفع العبد، وإنّما ينفعه ما له صلة بجزائه في الدارين، والآخرة بوجه خاصّ، بمعنى أنّ النصّ الكريم ربما يصرف اهتمام العبد لماهيّة الموت والبعث – إذا صحّ التعبير– وليس لمن يموت أو يُبعث، وتحديدًا في عدم وجود تعدّد لمراحل الموت، وإنما هي لحظة واحدة تنقله من دار إلى أخرى، على خلاف البعث، الذي يمرّ بمراحل عدّة، تبدأ من القيام من القبور وتنتهي بتلقّي الجزاء الأخير "الجنّة أو النّار". وربّما أشار ظرف

(1) سورة العنكبوت 11.
(2) سورة الكهف من الآية 31.
(3) سورة المؤمنون 15-16.

الزمان في كلٍّ من الآيتين الكريمتين إلى ذلك، ولاسيّما التصريح بـ "يوم القيامة" الذي يمكن أن يدلّ على ما ذهبنا إليه إذا ما اقترن ذكره بالبعث.

من ذلك كلّه يتبيّن أنّ النصّ الكريم يرصد الطباق السياقي بوساطة توظيف دلالتي: "التدرج بحدوث الفعل"، المتمثّلة في الدلالة على مشاهد القيامة المتعدّدة، و"عدم التدرج"، إذ موت الإنسان في لحظة. والدلالتان تصرفان العبد إلى ما هو جلل؛ فالموت ليس فيه مراحل يستطيع العبد أن يستدرك ما فاته، والبعث ليس لحظة تكون يسيرة عليه. والله أعلم.

قال تعالى على لسان عاد مخاطبين نبيّهم الكريم: (قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ)[1]، ظاهر التركيب يفيد بطباق سلب صريح بين من وعظ "ربما لمرة واحدة"، ونقيض من كان واعظا "على الدوام".

وهذا الطباق ربّما نعبّر عنه نحن بلفظ "أوعظت أم لم تعظ" أو بلفظ "أكنت واعظا أم لم تكن من الواعظين" أي التعبير عن الطرفين أما بوساطة الاسم، أو بوساطة الفعل. أمّا السياق الكريم على – وفق ما ذكرنا– فربّما يذكرنا بزعم من يقول أنّ في مثل هذه المواطن تناسبًا للفواصل القرآنية على حساب المعنى [2]؛ ذلك لأننا نسلط اهتمامنا على دلالة "واعظ" الواقعة في الفاصلة، بينما يمكن أن يُفهم من السياق الكريم صرف الاهتمام إلى لفظة "وعظت" التي تفيد بمساواتها في الدلالة – عند عاد تحديدًا– لفظة "واعظ" بمعنى تصريحهم بأنّ سيّدنا هودًا عليه السلام سواء عليهم أوعظهم، ولو لمرة واحدة، أم كان واعظًا لهم دائمًا. بمعنى أنّ في ظاهر التركيب مساواة بين طرفي الطباق الصريح، ومساواة أخرى بين دلالتي لفظة "أوعظت" – أي الطرف الأول من الطباق الصريح – ونعني بالدلالتين: الدلالة "اللغوية" على ندرة حدوث الفعل، والدلالة "السياقية" على حدوثه دائمًا، أي إنّهم ساووا بين كونه – عليه السلام – وعظ، أم لم يعظ من جهة، وساووا بين كونه وعظ مرّة واحدة، أم وعظ دائمًا من جهة أخرى، والله أعلم.

وقد تصاحب مظاهر الحركة أشكال من الاختلاف، وتحديدًا الاختلاف في زمن الفعل، الذي يعبّر عن هذه الحركات، فتارة يكون التعبير بوساطة الفعل الماضي، وتارة أخرى يكون بالمضارع، والسبيلان يحققان طرفي الطباق السياقيّ، ومن ذلك قوله تعالى: (وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ) [3]، وقال تعالى: (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً) [4].

(1) سورة الشعراء 136.
(2) سيأتي الحديث عن ذلك مفصّلا في موضوع الفاصلة.
(3) سورة النساء 92.
(4) سورة النساء 93.

وهنا جاء فعل القتل الخطأ في الآية الأولى بزمن الماضي، وجاء فعل القتل العمد بالآية الأخرى بزمن المضارع.

وهذا معناه أنّ القتل الخطأ عندما يؤدي مرتكبُه ما عليه من الديّة، والكفارة فسيكون ذنبه ماضيًا كالفعل الماضي، الذي جاء السياق به. أمّا القتل العمد فمرتكبُه يحمل وزره، وذنبه مستمر كاستمرار زمن الفعل المضارع الذي جاء به السياق، وهذا يعني تحقق دلالتي الطباق السياقيّ وهما "المُضي، والاستمرار" والله أعلم.

وقال تعالى: (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) [1].

ورد التعبير عن "البغي" بصورتين مختلفتين، ففي فعل الشرط حضور الفعل الماضي "بغت"، وفي جوابه حضور الفعل المضارع "تبغي". ودلالة ذلك – والله أعلم – يتمثل بأننا نقاتل الطائفة التي بغت بغيًا غير مقيّد – بمعنى حتى لو كان بغيها عارضًا أو قليلًا– فما إن بغت طائفة مّا على الأخرى فنحن مأمورون بقتالها، وذلك بمثابة تحذير صريح للمؤمنين عامّة بعدم البغي بعضهم على بعض.

ولكن بعد مقاتلة هذه الفئة عُبر عن بغيها بالفعل المضارع؛ ليخرج من ذلك من كان بغيه ماضيًا، بمعنى أنّنا مأمورون بالكفّ عن هذا القتال بمجرد توبة هذه الفئة وعودتها لرشدها، فلو كان التعبير في جواب الشرط بالفعل الماضي لكان لزامًا علينا مقاتلة الفئة التي بغت، إلى غير غاية، وهذا مفهوم قتالنا لغير المسلمين حصرًا.

ومن هذه الاختلافات ما جاء في قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيد) [2].

فالعمل الصالح هنا جاء التعبير عنه بوساطة الفعل المضارع "يشكر"، بينما جاء التعبير عن العمل غير الطالح بوساطة الفعل الماضي " كفر"، وقد يدلّ الفعل المضارع هنا على المضاعفة والزيادة، كما يمكن أن يدلّ الفعل الماضي على عدم المضاعفة، على شاكلة ما تقدّم. ويمكن أن يدلان أيضًا على أمر آخر، وهو الثناء على من "يشكر" وذكره بخير بشكل مستمر في الدنيا؛ لورود الشكر بصيغة الفعل المضارع، الذي يدلّ على الاستمرار، وانقطاع ذلك الذكر، مع ورود الفعل الماضي، الذي يدلّ على المضيّ والانقطاع.

وعلى كلا الحالين تتحقق دلالتا الطباق السياقيّ، وهما "المضاعفة، وعدمها"، وهو طباق سلب. أو "الاستمرار، والانقطاع"، والله أعلم.

(1) سورة الحجرات 9.
(2) سورة لقمان 12.

على أنّ الفعل الماضي ليس دائمًا مقرونًا بالأعمال غير الصالحة، بل قد يقترن بالأعمال الصالحة العظيمة؛ لاختلاف دلالة التوظيف، الذي يقتضيه السياق، ومن ذلك قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ) [1].

ذُكر أنّ من دلالات الفعل الماضي البتّ والتوكيد؛ كَونه مَقطوعًا بِه[2]، وهنا يمكن أن تكون كذلك؛ ففي الآية الكريمة ذكر لثلاثة أعمال: تلاوة كتاب الله، والصلاة، والزكاة، ومعلوم أنّ العملين الأخيرين من أركان الدين، فهما فرضان مغلظان، لذا جاء التعبير عنهما بوساطة فعل الماضي، بمعنى أنّ السياق القرآني هنا يؤكد على الصلاة والزكاة أكثر ممّا يؤكد على تلاوة كتاب الله، الأمر يحقق دلالتي الطباق السياقي، وهما "التوكيد، وعدمه"، والله أعلم.

قال تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا) [3].

جاء التعبير عن "طلب العاجلة" بوساطة الفعل المضارع "يريد"، في حين جاء التعبير عن "طلب الآخرة" بوساطة الفعل الماضي "أراد"، وهنا تبدو المغايرة في دلالتي التركيبين الكريمين.

ذكرنا أنّ من دلالات الفعل المضارع التكرار والمداومة، وهنا يمكن أن يدلّ النصّ الكريم على حال من يريد العاجلة، الذي لا ينفكّ عن طلبها، وبهذا يكون قد استحق الجزاء المترتب على طلبة المتكرر.

وتجدر الإشارة إلى حال كثير من المؤمنين الذين قد طلبوا العاجلة، ولكن طلبًا عارضًا، أو طارئًا، أو متقطعًا، لا يداوم عليه صاحبه، الأمر الذي يخرجهم من حكم هذا النصّ الكريم، بمعنى أنّ من رحمته تعالى جاء التعبير في هذا النصّ الكريم بصيغة الزمن المضارع، فلو جاء في صيغة الزمن الماضي – كما في طلب الآخرة – لشمل هذا الحكم كثيرًا من المؤمنين، الذين طلبوا العاجلة بوجه ما.

وفي مقابل ذلك يكون طلب الآخرة في سياق الفعل الماضي، الذي يمكن أن يدلّ على عدم التكرار والمداومة – مقارنة بدلالة الفعل المضارع– وهنا تبدو رحمة ربّنا، المتمثّلة بالجزاء العظيم لمن طلب الآخرة وإن لم يداوم على طلبها، ولكن يشترط في طلبه السعي الذي يقتضيه من جهة، والإيمان من جهة أخرى.

ولإدراك رحمته تعالى في دلالة ذلك أنّ النصّ الكريم لو جاء في صيغة المضارعة – كما في طلب العاجلة– لخرج من هذا الحكم كثير من المؤمنين، الذين لم يداوموا على طلب العاجلة، واقتصر على ثلة قليلة جدًا.

---

(1) سورة فاطر 29.

(2) ينظر: التفسير الكبير، فخر الدين الرازي (ت606هـ) دار إحياء التراث، العربي، بيروت، ط3، 1420هـ، ج24، ص574. ومن هذه الدلالة قوله تعالى:(وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ)سورة النمل 87.

(3) سورة الإسراء 18-19.

المبحث الثاني

الاختلاف في أساليب التعبير

من المعلوم أنّ اختلاف التعبير بين سياقين يعني اختلاف ما بين دلالتيهما، الأمر الذي يحقق في بعض الأحايين مفهوم الطباق السياق، ومن هذه الاختلافات ما كان في الفاعل، كما في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) [1]. ففي سياق "الذين آمنوا" الفاعل ضمير يعود على لفظ الجلالة، وفي سياق "الذين كفروا" الفاعل ضمير يعود عليهم، ويمكن أن يكون دلالة ذلك أنّ الله تعالى وليّ الذين آمنوا، وهو الذي يتولاهم –جلّ في علاه– بينما يُوكلّ أمر الذين كفروا إليهم؛ ذلك بإعراضهم عن سبيله تعالى، وبهذا تتحقق دلالتا الطباق السياقي، وهما الولاية، وعدمها، والله أعلم.

وقال تعالى على لسان العبد الصالح:... (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ...) [2]، ثم قال في الغلامين صاحبي الجدار:... (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا..) [3] اختلف الإسناد هنا في فعلي الإرادة؛ إذ أسند العبد الصالح لنفسه فعل الإفساد، وأسند فعل الخير لله تعالى، فنسب إرادة عَيْب السفينة إلى نفسه، ولم ينسبها إلى الله تعالى؛ تنزيهًا له تعالى عَمَّا لا يليق، أمّا في الخير فنسب الأمر إلى الله [4]، كما في قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) [5]. الأمر الذي يمكن أن يدلّ على أنّ الخير والإصلاح من الله "الخالق"، وأنّ الشرّ والإفساد من البشر "المخلوق"، وهما طرفا الطباق السياقيّ، والله أعلم.

وقال تعالى عن النار: إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا [6]

من الواضح أنّ فاعل الرؤية يعود على النار، وأنّ فاعل السمع يعود على أهل النار، وربّما دلّ هذا الاختلاف على أن لا حول لهم يومئذ، ولا قوّة؛ فالرؤية تكون حسب الرغبة من الإنسان عمومًا، وإذا ما كره النظر لشيء ما فله القدرة في صرف نظره إلى أمر آخر، أو إغماض عينيه، على عكس الحال في السمع؛ إذ ليس له الخيار في عدم تقبّل من يتلى عليه، بسحب طبيعة خلقه، بمعنى تحقّق دلالتي الطباق السياقي، ولكن في سياق الآية الكريمة نفي واضح لأحد طرفي الطباق، وتحديدًا دلالة القدرة، التي انتفت بإسناد فعل

(1) سورة محمّد 12.
(2) سورة الكهف من الآية 79.
(3) سورة الكهف من الآية 82.
(4) تفسير الشعراوي 8967/14.
(5) سورة الشعراء 80.
(6) سورة الفرقان 12.

الرؤية للنار، ممّا يصوّر حال أهل النار، الذين ليس لهم من الأمر من شيء يومئذ، ولا حول لهم ولا قوة، والله أعلم.

ومن مظاهر الاختلاف في الأساليب ما تحقّق بوساطة الدلالات الوصفيّة، كما في قوله تعالى: (ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) [1].

في الآية "نبّئ عبادي" اسم إن – الذي يمثل ذروة المعنى – يعود على الموصوف (الغفور الرحيم) وفي الآية التي بعدها اسم إن – الذي يمثل ذروة المعنى أيضا – للصفة (عذابي). بمعنى وضوح الدلالة على الذات الإلهية في الكلام عن المغفرة، وتغييبها في الكلام عن العذاب.

وفي هذه المخالفة في الإسناد ينحاز المعنى لرحمته تعالى، على حساب عذابه، ومن ثمّ تحقيق حقل دلالي – يسود السياق عمومًا – قوامه الاستبشار لعباده تعالى. وتوظيف السياق للحديث عن أهل الجنّة ربّما كان وراء انحياز الدلالات لتناسب ذكرهم، والله أعلم.

وقد تنعكس هاتان الدلالتان، في موضع آخر، كما في قوله تعالى: (وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ) [2].

في هذا النصّ الكريم يبدو الأمر مغايرًا تمامًا لما تقدّم؛ إذ إسناد الفاعل في "العذاب" للذات الإلهية وهو الضمير في (أصيب)، وإسناد فاعل الرحمة للرحمة نفسها بقوله (وسعت). وهذا يعني انحياز المعنى للعذاب، على خلاف ما ذكرناه قبل قليل، ففي الآية الأخرى يقول تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [3].

وهنا يمكن أن تُفسَر هذه الظاهرة، وتحديدًا دلالات توجيه اليهود والنصارى لإتباع رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، التوجيه المصحوب بتحذير وتهديد صريحين؛ لعلمه تعالى بتوليهم وإعراضهم عن الحقّ، ومن ثمّ فمثل هذا التوجيه يناسبه انحياز دلالة السياق للعذاب، الأمر الذي يحقق دلالتي الطباق السياقي، وهما "الوعد بالخير، والوعيد بالشرّ"، أو "البشارة، والتهديد"، والله أعلم.

(1) سورة الحجر 46-50.
(2) سورة الأعراف 156.
(3) سورة الأعراف 157.

قال تعالى:(فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) [1]

يجب أن نعي أولا أنّ معنيي الآيتين الكريمتين يقومان على مفهوم طباق السلب، حيث الجمع بين إثبات المعنى ونفيه، وتحديدًا إثبات ضنك العيش في الدنيا، وحالة العمى في الآخرة من جهة، ونفي الضلالة والشقاء من جهة أخرى.

ولكن قد يُثار في أذهان البعض أنّه كان من الممكن أن يكون جواب الشرط في حال الإعراض: ومن أعرض عن ذكري فيضل ويشقى، على غرار ما تقدّم، ولكنّ اختلاف الإسناد له أثره في تحقيق البعد بين دلالتي جوابي الشرط في الحالين، فمن اتبع الهدى يُجزى بنفي الضلالة والشقاء، وهما – إذا ما أصابا المرء– أقل وقعًا من ضنك العيش وحالة العمى، وبهذا يمكن أن يتضمن السياق دلالتي: نفي القليل وتحقيق العظيم، الأمر الذي يحقق شكلًا من الطباق السياقي، ويبيّن الاختلاف الكبير بين جزائي الفريقين، والله أعلم.

قال تعالى على لسان سيدّنا موسى مخاطبًا العبد الصالح عليهما السلام: (قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا) [2].

قال على لسان سيّدنا إسماعيل مخاطبًا أباه سيّدنا إبراهيم عليهما السلام: (قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) [3].

إذا قرأنا القصّتين جيّدًا نجد أنّ فيهما دلالات متقابلة، وعلى وفق ما يأتي:

سيّدنا إسماعيل عليه السلام	سيّدنا موسى عليه السلام
أُمر بـ (التسليم لأمر الذبح الإلهي)	أُمر بـ (عدم السؤال على ما يراه)
استجاب للأمر، وعلق استجابته بمشيئته تعالى	استجاب للأمر، وعلق استجابته بمشيئته تعالى
كان يرجو أن يكون (من الصابرين)	كان يرجو أن يكون (صابرًا)
وفقّه الله، وثبّته على صبره	لم يُثبّت على صبره

ومن هذا المخطط يمكن أن نلحظ ما يأتي:

1 . يلحظ الاتفاق في محورين، والاختلاف في محورين؛ أمّا الاتفاق ففي التسليم لما أُمر به كلٌّ من سيّدنا إسماعيل، وسيّدنا موسى عليهما السلام، ثمّ تعليق الاستجابة لمشيئته تعالى. وأمّا الاختلاف ففي الرجاء من جهة، وفي الثبات على الصبر من جهة أخرى.

(1) سورة طه 123-124.
(2) سورة الكهف 69.
(3) سورة الصافات من الآية 102.

2 . يلحظ اختلاف درجة الابتلاء؛ فابتلاء سيّدنا موسى عليه السلام يتعيّن بامتثال المتعلم لأمر معلمه، وهذا يكون على الأصل، ممّا قد لا يتطلّب منه درجة عالية من الرباط، مقارنة مع ما أُمر به سيّدُنا إسماعيل، الذي يتعيّن بامتثاله عليه السلام لأمر الذبح، الذي لا يكون على الأصل، ممّا يتطلب درجة عالية من الرباط.

3 . رجاء سيّدنا إسماعيل عليه السلام يشتمل على جعله واحدًا من الصابرين، ومن ثمّ اختفاء عبوديّته بين عبوديّة الصابرين الآخرين، الأمر الذي يمثّل تغييبًا واضحًا لزهو النفس والإعجاب بها. يقابل ذلك رجاء سيّدنا موسى عليه السلام، الذي يشتمل على جعله صابرًا فريدًا، الأمر الذي قد لا يحمل الدلالات ذاتها، والله اعلم.

ومن المناسب هنا الإشارة لقول سيّدنا لوط مخاطبًا سيّدنا موسى عليهما السلام: (قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) [1]، فقوله "من الصالحين" يذكرنا بقول سيدنا إسماعيل "من الصابرين"، الأمر الذي ربّما يكون السبب في تثبيت سيّدنا لوط، فكان – بفضله تعالى– من الصالحين، والله أعلم.

4 . ونتيجة لما تقدم جاءت النتيجة متغايرة تمامًا؛ إذ ثبات سيّدنا إسماعيل، وعدم ثبات سيدنا موسى عليهما السلام، على الرغم من الاختلاف في درجة الابتلاء – كما قلنا – ويمكن أن يُستلهم من القصتين ضرورة تغييب النفس، وعدم الإعجاب بها في كلّ الأحوال [2]، بعد الاستعانة بالله، وتعليق التوفيق بمشيئته تعالى.

5 . يمكن الوقوف على صيغتي فعل الاستطاعة "تستطع، وتسطع"، وتحديدًا دلالة المخالفة بينهما، إذ أشار صاحب التحرير والتنوير إلى أنّها (لِلتَّفَنُّنِ تَجَنُّبًا لِإِعَادَةِ لَفْظٍ بِعَيْنِهِ مَعَ وُجُودِ مُرَادِفِهِ) [3]، ومن المناسب هنا التعرّض لتوظيف الصيغتين في موطن آخر، وتحديدًا في قوله تعالى في قصة يأجوج ومأجوج: (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) [4]، فقال صاحب التحرير والتنوير أيضًا في دلالة المخالفة بين الصيغتين: إنّ (مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أَنْ يُبْتَدَأَ بِفِعْلِ اسْتَطاعُوا وَيُثَنَّى بِفِعْلِ اسْطاعُوا لِأَنَّهُ يَثْقُلُ بِالتَّكْرِيرِ) [5]، الأمر الذي لا نذهب إليه؛ لأنّنا نرى أنّ الغاية الأسمى للتعبير القرآني الدلالة حصرًا –كما أسلفنا– وكل ما سواها يكون في خدمتها.

(1) سورة القصص 27.
(2) ينظر: تفسير البيضاوي 291/3.
(3) التحرير والتنوير15/16.
(4) سورة الكهف 97.
(5) التحرير والتنوير38/16.

ودلالة هذا التخفيف يمكن أن تعبّر عن تخفيف الفعل في تقدير سيّدنا موسى عليه السلام، فعندما فسر الخضر لموسى، وبين له تأويل ما لم يصبر معه، ووضحه وأزال المشكل، قال (تسطع) بحذف التاء. وقبل ذلك كان الإشكال قويا ثقيلا. فقال: سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا، فقابل الأثقل بالأثقل والأخف بالأخف [1]، الأمر الذي يمكن تعميمه على ما ورد في الموطن الآخر؛ إذ أنّ بلوغ السدين أيسر من نقبهما، لذا جاء الأثقل للأثقل والأخف للأخف، على وفق قاعدة أنّ الزيادة في المبنى تقتضي غالبا زيادة في المعنى، التي أشرنا إليها سابقًا.

من ذلك كلّه يتبيّن لنا أنّ صبر سيّدنا موسى –بعد ما تبيّن له– كان أيسر على النفس من صبر سيّدنا إسماعيل، كما يبدو لنا، والله أعلم.

6 . بوساطة اختلاف الإسناد في كلا النصّين الكريمين يتشكّل مظهر من مظاهر الطباق السياقي، ودلالتاه تغييب الذات وعدمه، والله أعلم.

وقال تعالى في مظاهر نعيم أهل الجنّة: (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ) [2]، وقال في السياق نفسه في ذكر مظاهر عذاب أهل النار: (لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ) [3].

يتضح من السياق الكريم جملة من الثنائيّات في ذكر ضرب من طعام أهل الجنّة وشرابهم، من جهة، وضرب من طعام أهل النار وشرابهم من جهة أخرى. وهنا الفرق بيّن بين كلا الدلالتين، ولكن ثمّة دلالة أخرى تتعلق بالاختلاف بين التركيبين؛ من حيث حضور دلالتي الأكل الشرب في سياق أهل النار من جهة، والتعبير عنهما بوساطة الاسم – الدال على الثبوت– من جهة أخرى، يقابل ذلك حضور دلالة التخيير في سياق أهل الجنّة، الأمر الذي يمكن أن يحقق دلالتي الطباق السياقي، وهما "الإباحة والإكراه"، أو "التكريم والإذلال"، والله أعلم.

وفي جزاء المؤمنين والكافرين قال تعالى : (أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) [4].

(1) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي (ت 1332هـ)، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، 1418 هـ، ج7، ص56.
(2) سورة الواقعة 17-20.
(3) سورة الواقعة 52-55.
(4) سورة السجدة 18-20.

ففي سياق المؤمنين: "لهم جنات المأوى" وفي سياق الكافرين قال: "مأواهم النار" وهذا الاختلاف في الإسناد يمكن أنّ يدلّ على أنّ المؤمنين يُكرمون الجنّة، من غير استحقاق بالعمل، والكافرين يُجزون النّار؛ باستحقاق بالعمل.

ومن ذلك قاله تعال: (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) [1]. فاللذين آمنوا "لهم مغفرة ورزق كريم"، بمعنى أنّهم يكرمون هذه النعم. وأمّا الفريق الآخر فـ "أولئك أصحاب الجحيم"، بمعنى أنّهم استحقوها بسوء عملهم. وقد تكرر هذا الأسلوب في مواطن متعدّدة من القرآن الكريم[2].

وتبدو هذه الدلالة جليًا في قوله تعالى: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [3].

واختلاف الإسناد هنا يبدو بين جوابي الشرط ؛ ففي سياق من جاء بالحسنة "فله خير منها"، وفي سياق من جاء بالسيئة "فكبت وجوههم". أمّا دلالة الجار والمجرور "لهم" فربّما لا تختلف عن دلالتها في النصّ السابق، وأما دلالة الجملة الفعليّة "فكبت" فيمكن أن تكون على البتّ، والحتميّة في المصير –وقد سبقت الإشارة لهذه الدلالة– بمعنى أنّ دلالتي (الاستحقاق، وعدمه) حاضرة هنا أيضًا، الأمر الذي يحقق الطباق السياقي، وهو طباق سلب. ويمكن أن نحمله على طباق الإيجاب في كلّ من النصّين إذا نظرنا لدلالة الاستحقاق بأنها عدل منه تعالى، وأنّ عدم الاستحقاق إنّما هو من رحمته وكرمه، ومن ثمّ يكون طرفا الطباق (الكرم، والعدل) والله أعلم.

وقال تعالى في الجزاء أيضًا: (فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) [4].

في هذا السياق الكريم يمكن رصد اختلافات الإسناد في تقابل عملي كلا الفريقين، الأمر الذي يشكل مظهرا الطباق السياقي، أمّا تقابل العمل الأول فيكمن في تعبيري عمل من "طغى"، وعمل من "خاف مقام ربّه"، وإذا اتفقنا أنّ أصحاب العمل الأخير هم من الذين آمنوا – حصرًا – فلا يمكن عدّ الفريق الأول من طائفة بعينها؛ لأنّ النصّ الكريم لم يصرّح بذلك من جهة، ولأنّ عمله هنا ينطبق على عمل كثير من الخلق، من جهة أخرى. الأمر الذي ربّما يدلّ على أنّ طريق الحقّ واحد، وطرق الباطل كثيرة. ومن ثمّ تحقق دلالتي الطباق السياقي، وتحديدًا في الحصر، وعدمه. أو الحصر، والتعدّد، والله أعلم.

(1) سورة الحج 50-51.
(2) من ذلك ما جاء في سورة الملك 6 و 12.
(3) سور النمل 89-90.
(4) سورة النازعات 37-41.

أمّا العملان المتقابلان الآخران فلهما أسلوبهما الخاص الذي يسهم في تشكيل مظهرًا آخر من مظاهر الطباق السياقي؛ فمن "آثر الحياة الدنيا" ومن "نهى النفس عن الهوى" بعيدان كل البعد عن بعضهما في التوجّه والسلوك. وكفّ النفس عن أهوائها سلوك تعبّدي يمكّن صاحبه من عدم التعلّق بالدنيا، ذالك التعلّق الذي يتمثّل بالحرص عليها، وطول الأمل. وفي ذلك قال تعالى: (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) [1].

ولإدراك البون الكبير بين العملين يمكن تسليط الضوء على مفاعيل سبيليهما، أمّا الطغيان فسبيله أن نؤثر "الدنيا"، وأمّا الرشد فسبيله أن ننهي "النفس" وأن نخاف "مقامه" تعالى. وبهذا يكون سبب الطغيان مطلق غير مقيد، وسبيل الرشد مطلق من جهة، ومقيد من جهة أخرى؛ أمّا الإطلاق فبالدلالة على عموم أشكال كفّ النفس عن رغباتها، وأمّا التقييد ففي قوله "سعى لها سعيها وهو مؤمن" وفيه دلالة على القصد من ذلك العمل، وهو ابتغاء وجهه تعالى، ومن ذلك كلّه يرصد السياق سبيل الطغيان من غير تقييد، وسبيل الرشيد بتقييد، وهو ما نفهمه طباقًا سياقيًّا، والله أعلم.

قال تعالى:(فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ) [2].

واضح أنّ اختلاف الإسناد هنا يتمثّل في تركيبي: (هو في عيشة راضية، وأمّه هاوية)، اللذين تمثلان دلالتاهما معنيي الطباق السياقي. وللسياق أثر بالغ في تحقيق هذين المعنيين، وهما: شدّة السعادة، وشدّة الشقاء،. ولكن السبيلين لتحقيقهما مختلفتان من طرف لآخر؛ فسبيل تحقيق معنى السعادة مجازًا [3]، من خلال نسبة الرضا للعيشة، (وَالْعِيشَةُ لَيْسَتْ رَاضِيَةً وَلَكِنَّهَا لِحُسْنِهَا رَضِيَ صَاحِبُهَا، فَوَصَفَهَا بِـ راضِيَةٍ مِنْ إِسْنَادِ الْوَصْفِ إِلَى غَيْرِ مَا هُوَ لَهُ وَهُوَ مِنَ الْمُبَالَغَةِ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ الرِّضَى بِسَبَبِهَا حَتَّى سَرَى إِلَيْهَا)[4].

وأمّا تحقيق معنى الشقاء ففي قوله تعالى: (فأمّه هاوية) وأرجح ما قيل فيها –بحسب ما نراه– أنّه (قِيلَ: لِلْمَأْوَى أُمٌّ عَلَى سَبِيلِ التَّشْبِيهِ بِالْأُمِّ الَّتِي لَا يَقَعُ الْفَزَعُ مِنَ الْوَلَدِ إِلَّا إِلَيْهَا) [5]، وقوله "قيل للمأوى أم" يعني أنّ المأوى مشبّه وهي الهاوية، وتقدير التشبيه هاوية كأمّه، فقلب التشبيه من جهة، وحذفت أداته ووجه شبهه من

(1) سورة الحجر 3. نبّه رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم على الحرص وطول الأمل بقوله: (قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابَ عَلَى حُبِّ اثْنَيْنِ: حُبِّ الْحَيَاةِ، وَحُبِّ الْمَالِ). شرح السنة، البغوي الشافعي (ت 516هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ط2، 1983م، ج 14، ص283.

(2) سورة القارعة 6-11.

(3) المجاز: (ما أفاد معنى غير مصطلح عليه في الوضع الذي وقع فيه التخاطب). الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز 37/1.

(4) التحرير والتنوير«تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، ابن عاشور (ت 1393هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984هـ، ج29، ص133.

(5) المصدر نفسه 32/ 268.

جهة أخرى، فصار التشبيه مقلوبًا بليغًا. وما يؤيد ما ذهبنا إليه أنّ السورة الكريمة تختتم بعبارة: (وما أدراك ما هي نار حامية) فيرى البحث أنّ هذا السؤال والجواب متوافقًا مع ما ذهبنا إليه، والله أعلم.

وقد يكون اختلاف التعبير على مستوى الاشتقاق الصرفيّ، ونعني بذلك مغايرة الجذر الصرفي للأفعال أو للأسماء، التي تدخل في النظم القرآني، ويتبع هذه المغايرةَ – بالضرورة – مغايرةُ بالمعنى، لها الأثر في توجيه السياق؛ لتحقيق الطباق السياقيّ، ولضيق بحثنا سنتناول صيغة صرفيّة واحدة، وهي صيغة "فاعل"، وسنوازن بين دلالتها ودلالة صيغة الأصل. ومن ذلك قوله تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلا) [1].

إذا تأمّلنا لفظتي "يخادعون، وخادعهم" نجد أنّهما متغايرتين من حيث "الاسم والفعل" من جهة، ومن حيث "الجذر الاشتقاقي" من جهة أخرى، والظاهرتان تضافرتا في تحقيق الطباق السياقيّ، أمّا من حيث الاسم والفعل فقد جاء السياق على شاكلة ما سبق ذكره، وأمّا من حيث الجذر الاشتقاقيّ فالملحوظ أنّ "يخادعون" فعل مزيد، أصله "خادع"، و"خادعهم" اسم فاعل، لفعل غير مزيد، أصله "خدع" ، وفرق كبير بين الصيغتين، إذا ما علمنا أن من أشهر معاني صيغة "فاعل" الاشتراك بحدوث الفعل [2]، بمعنى أنّ للفعل "يخادعون" ردّة فعل، على شاكلته، وتحديدًا من الله تعالى، فكلّما خدع المنافقون الله سبحانه فإنه سرعان ما يخدعهم الله، ولكن لا يشعرون، هذه دلالة الاشتراك بحدوث الفعل، التي توافرت بصيغة "فاعل". بينما جاءت الصيغة الأخرى على زنة "فَعَلَ" وهي على الأصل، بمعنى أنّها لا تدلّ على معنى الاشتراك، أو أيّ معنًى آخر، وبالتالي فإنّ دلالتي الطباق السياقيّ حاضرتان في الآية الكريمة، وهما "الردّ على الفعل، وعدمه" وهو طباق سلب. ولعظمة المعنى عُزز الطباق السياقيّ بسبيل آخر، يتمثل بإسناد فعل المنافقين للجملة الفعلية، وإسناد فعل الله للجملة الاسمية، والله أعلم.

وممّا جاء على سبيل المغايرة في الاشتقاق الصرفيّ قوله تعالى: (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) [3].

واضح أنّ في لفظتي "تفرّون، وملاقيكم" تتوافر ثلاثة مظاهر للطباق:

- الطباق الصريح؛ فالفرار نقيض اللقاء، وهو ما لا تهتمّ به دراستنا.
- الطباق الساقي بواسطة الاسم والفعل، وهذا ما فصّلنا القول فيه في ما تقدّم.

(1) سورة النساء 142.

(2) ينظر: شرح شافية ابن الحاجب، حسن بن محمد بن شرف شاه الحسيني الأستراباذي، (ت 715هـ) تحقيق د. عبد المقصود محمد عبد المقصود، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2004م، ج1، ص253.

(3) سورة الجمعة 8.

– الطباق بوساطة المغايرة في زنة الصيغتين الصرفيّتين، اللتين تمثلان جذري اللفظتين، فجذر الفعل "فرّ" يكون "فَعَلَ"، وزنة جذر الفعل "لاقى" يكون "فَاعَل"، والفرق بين الدلالتين – كما قلنا في توجيه سياق الآية السابقة – الردّ على الفعل وعدمه، أي إنّ الفعل "تفرون" يدلّ على عدم صدور ردّة فعل من الموت على فعل الفرار، بمعنى أنّ البشر يفرون – بحسب ظنّهم – من الموت، ولا يفرّ الموت منهم. بينما يلقاهم الموت، وهم يسعون للقائه، كما يسعى هو للقائهم، ولكن لا يشعرون لذلك (جيء بالفاء لإفادة أن الفرار سبب الملاقاة)[1]، وهذا ما تفيده دلالة الاشتراك بحدوث الفعل، الذي تشتهر به صيغة "فاعل". وبالتالي يتحقق الطباق السياقيّ. على شاكلة ما تقدم، والله أعلم.

ومن أشكال اختلاف التعبر ما تحقّق بوساطة تخصيص الفعل وتعميمه، كما في قوله تعالى: (وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) [2].

في هذا الخطاب تخصيص وعده سبحانه بسوء العاقبة – أي النار– بالمجرمين فحسب، بقولهم "وعدنا". وتعميم وعده سبحانه بحسن العاقبة – أي الجنّة – بقولهم "وعد" من غير تقييد.

ممّا يحقق مظهرًا من مظاهر الطباق السياقي، وهو "التعميم والتخصيص" الأمر الذي يبيّن جليًّا رحمته تعالى لعباده.

ومن تخصيص الفعل وتعميمه قوله تعالى: (... وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا) [3]. إذ الإطلاق الواضح لدلالة الظلم، وتقييد لفاعله. وقال تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا)[4]. وهنا تقييد واضح للظلم، وإطلاق لفاعله، بمعنى أنّ التقييد والإطلاق معكوسان تمامًا في السياقين الكريمين، وربّما كان المخاطَب سبب هذا الاختلاف؛ ففي الآية الأولى يخاطب من كذّب بالساعة، فكانت دلالة السياق عمومًا أقرب إلى التهديد والوعيد. أمّا في الآية الأخرى فيُخاطَب المستغفرون فكانت دلالة السياق عمومًا أقرب إلى الرحمة والبشارة، الأمر الذي يحقق دلالتي الطباق السياقي، والله أعلم.

ومن دلالات التعميم والتخصيص قوله تعالى: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) [5].

(1) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للآلوسي (ت 1270هـ)، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415 هـ، ج2، ص291.
(2) سورة الأعراف 44.
(3) سورة الفرقان 19.
(4) سورة النساء 110.
(5) سورة الإسراء 16.

توهّم البعض في تفسير هذا النصّ الكريم، ممّا سبب إشكالا كبيرًا في توجيه دلالاته، فبعض الناس يفهمون هذه الآية الكريمة على غير وجهها؛ فهم يفهمون الفسق على أنّه نتيجة لأمر من الله سبحانه وتعالى، والحقيقة أنّهم إنّما قد خالفوا أمر الله؛ لأنّ الحق سبحانه يقول: (وَمَآ أمروا إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين أي إنّ الحق سبحانه أمر المترفين أن يتبعوا منهج الله، لكنهم خالفوا المنهج الإلهي مختارين؛ ففسقوا عن أمر ربّهم)[1]، بمعنى أنّ (الْمَعْصِيَةَ مُنَافِيَةٌ لِلْأَمْرِ وَمُنَاقِضَةٌ لَهُ، فَكَذَلِكَ أَمَرْتُهُ فَفَسَقَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَأْمُورَ بِهِ شَيْءٌ غَيْرُ الْفِسْقِ لِأَنَّ الْفِسْقَ عِبَارَةٌ عَنِ الْإِتْيَانِ بِضِدِّ الْمَأْمُورِ بِهِ فَكَوْنُهُ فِسْقًا يُنَافِي كَوْنَهُ مَأْمُورًا بِهِ، كَمَا أَنَّ كَوْنَهَا مَعْصِيَةً يُنَافِي كَوْنَهَا مَأْمُورًا بِهَا، فَوَجَبَ أَنْ يَدُلَّ هَذَا اللَّفْظُ عَلَى أَنَّ الْمَأْمُورَ بِهِ لَيْسَ بِفِسْقٍ، وَهَذَا الْكَلَامُ فِي غَايَةِ الظُّهُورِ ... وَهُوَ أَنَّ الْمَعْنَى أَمَرْنَاهُمْ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَهِيَ الْإِيمَانُ وَالطَّاعَةُ وَالْقَوْمُ خَالَفُوا ذَلِكَ الْأَمْرَ عِنَادًا وَأَقْدَمُوا عَلَى الْفِسْقِ)[2].

وقد يكون سبب هذا الفهم الخاطئ عدم إدراك مسألة التعميم للفعل "أردنا"، والظنّ بأنّه مخصوص بالفسق، أي أمرناهم بالفسق، غير أنّه مطلق من جهتين: الأولى تعدّد الأعمال الصالحة التي أُمر بها "المترفون"، والأخرى عدم تقييدها بالقرية تحديدًا، إي اعملوا صالحًا فيها وفي غيرها. يقابل ذلك تخصيص الفعل "فسقوا" من حيث جنسه من جهة، ومن حيث ظرفه من جهة أخرى، وبذلك تتحقق دلالتا الطباق السياقي، وهما الأمر المطلق بالصالحات، والاستجابة المقيّدة بالفسق، والله أعلم.

وقد يختلف التركيب باختلاف التفصيل، ونعني بذلك أن تتوافر في السياق تفصيلات في أمرين، ولكنّ ليس على نسق واحد، ولاسيّما من جهة كثرتها في أمر، وقلتها في آخر، الأمر الذي يولد دلالات متغايرة، من شأنّها أن تحقق مظاهر الطباق السياقي، بحسب ما نرى، والله أعلم.

ومن اختلافات التعبير ما كان في التقييد والإطلاق، ومنه قوله تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [3] . فتقييد سبيل الحقّ بالتقوى والصلاح، وعدم التقييد لسواه من السبل.

ويمكن أن نتعرّض لقوله تعالى أيضًا: (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [4] .

(1) تفسير الشعراوي 11/ 6746
(2) التفسير الكبير 314/20.
(3) سورة الأعراف 35-36.
(4) سورة البقرة 38-39. وللوقوف على سياق مشابه آخر ينظر أيضًا سورة التغابن 9-10.

وللإدراك دلالة هذا السياق الكريم نتعرض لسياق مشابه آخر، وتحديدا في سورة طه، إذ قال تعالى: (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) [1].

واضح أنّ كلا السياقين ينقسمان على معنيين: الأول بخصوص المؤمنين، الذين يتبعون الهدى، والآخر بخصوص الكافرين، الذين يعرضون عنه. وواضح أيضًا أنّ المعنى الأول في كلا السياقين جاء بوساطة أسلوب الشرط، على خلاف المعنى الأخر، الذي جاء في السياق سورة البقرة بوساطة أسلوب الإخبار المجرّد، وجاء في سياق سورة طه بوساطة أسلوب الشرط.

ولإدراك سرّ هذا البناء الأسلوبي نتعرض لجانب من الفوارق الدلاليّة –الكثيرة– بين السياقين، ومنها أنّ قصة أبينا آدم عليه السلام في سياق سورة البقرة (في كلّ حلقاتها ومجالاتها مبنيّة في الحقيقة على تكريم آدم، وكلّ الجوانب الأخرى المذكورة فيها إنّما تخدم هذا التكريم) [2]، فعلى سبيل المثال –لا الحصر– الفعل "تبع، واتّبع" في كلا السياقين، فمن المعلوم أنّ الفعل بالتشديد يفيد المبالغة، فجاء سياق سورة البقرة بالأخفّ من الحدث؛ (تخفيفًا على البشر، مراعاة لمقام التكريم) [3]. ومادام السياق في معرض تكريم الإنسان – عمومًا– فهو أهل لإتباع الهدى، وليس الإعراض عنه، أي وكأنّ السياق يُعنى بالاحتمال الأول –إتباع الهدى– أكثر من الآخر، فلو تأملنا جملتي المعنيين في سياق سورة البقرة نجد أنّ ذروة المعنى عمومًا تنحاز إلى جملة الشرط، بمعنى أنّ دلالة "التكريم" –التي يعبّر عنها السياق– تطلبت أن يكون المعنى الأول هو الأهم، الأمر الذي عُبر عنه سياقيًّا بوساطة أسلوب الشرط، الذي حضر في المعنى الأول وغاب عن الآخر، كما هو واضح.

أمّا سياق سورة طه فقد حضر أسلوب الشرط في المعنيين؛ للدلالة على اهتمام السياق بهما عمومًا، وعدم انحيازه لطرف دون أخر، والله أعلم.

على أنّ ذروة المعنى لا يشترط أن تكون لمعنى المؤمنين، إذ قال تعالى: (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [4].

(1) سورة طه 123-124.
(2) التعبير القرآني 333.
(3) التعبير القرآني 339.
(4) سورة البقرة 81-82.

في هذا الموطن من سورة البقرة يكون الحديث عن بني إسرائيل، بل إنّ جملة الشرط في قوله "من كسب سيئة" للردّ على زعمهم، كما هو واضح في الآية الأولى، وبهذا يكون هذه الردّ بمثابة ذروة معنى السياق، إذ وُظف بوساطة أسلوب الشرط، على حساب المعنى الآخر، المتمثّل في جملة الاسم الموصول وصلته. وإذا ما تحققت ذروة المعنى على وفق ما عرضنا تتحقق دلالتا الطباق السياقي، وهما "الاهتمام وعدمه".

وقد يتحقّق اختلاف التعبير بوساطة المناوبة بالتسويف، كما في قوله تعالى: (قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا) [1].

يلحظ حضور أداتي التسويف، ففي سياق العذاب جاء التسويف بوساطة الأداة "سوف" وفي سياق الجزاء الحسن جاء التسويف بوساطة الأداة "السين". وهنا ينبغي أن نعي أمرين: أمّا الأول فيتمثل في أنّ (سوف أشدّ تراخيًا في الاستقبال من السين)[2] بمعنى أنّ "سوف" أبعد من "السين" من جهة الأمد، وأمّا الآخر فيتمثل في أنّ الأمدين من زمن الدنيا، وبهذا يمكن أن يدلّ السياق الكريم على دلالتين، هما "إمهال من ظلم، والمباشرة بجزاء من عمل صالحًا"، وهما دلالتا الطباق السياقي، والله أعلم.

وعلى الرغم من تقدّم الحديث عن ظاهرة "التقديم والتأخير" إلا أنّنا لا نجد ضيرًا في بيان دلالتها في هذه الآية الكريمة. إذا من الممكن أن نلحظ تقديم عذاب البشر على عذاب الله . وتقديم جزاء "الحسنى" على جزاء البشر، بمعنى أنّ السياق يؤخّر العذاب الأشد على النفس، ويقدّم الجزاء الأعظم، وفي ذلك دلالة واضحة على مراعاة ما تستأنس به النفس، أي تقديم الأفضل لها، وتأخير الأدنى، ممّا يمكن أن يدلل على مظهر آخر للطباق السياقي، والله أعلم.

ومن أشكال المناوبة في التسويف قوله تعالى: (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) [3].

قد لا يبدو التسويف في هذا النصّ الكريم مغايرًا في دلالته عن النصّ السابق، ولكنّ المغايرة تبدو في آية "من تاب وآمن"، وتحديدًا في إلغاء الزمن بغياب التسويف، الأمر الذي يزيد من بينونة الزمن، قياسًا بما ورد في النصّ السابق.

(1) سورة الكهف 87-88.
(2) الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، أبو البركات الأنباري (ت 577هـ)، المكتبة العصرية، ط1، 1424هـ، 2003م، ج2، ص 533.
(3) سورة النساء 59-60.

ولكنّ إذا ما توجّبت الدراسة الموازنة فليس بين آيتي هذا النصّ، كما هو الحال في النصّين السابقين، وإنّما بين دلالتي إلغاء الزمن في هذا النصّ، والتسويف بالسين في النصّ السابق. أي آية "من تاب وآمن، وآية التسويف بالسين من سورة النساء"، ولا نرى مغايرة في سياق الآيتين بقدر ما نراه في انفراد هذا النصّ بالفعل "تاب"، بمعنى أنّ السياق الكريم يمكن أن يدلّ على ثواب التوبة العظيم، المتمثّل بدخول صاحبها الجنّة من غير تسويف، الأمر الذي يمكن أن يشكل مظهرًا أخر من مظاهر الطباق السياقي، ودلالتاه البينونة في الزمن الذي يسبق دخول الجنّة بين فريقين من أصحابها، والله أعلم.

الخاتمة

تطرق البحث همومًا على التقنيات السياقيّة، التي توجّه المتلقي لدلالات الطباق، وتحديدًا تلك التي تتحقّق بوساطة التوظيف السياقيّ الخاصّ لكلّ من الجمل الاسمية والجمل الفعليّة. وختاما يمكن إيجاز ما تمّ ذكره بما يأتي:

- ينبغي أن نذكر أولا أنّ تجربتنا هذه جاءت من خلال الإفادة من معطيات الدرس النقدي العربي، ولاسيّما من جهة التوظيف الأمثل لعلوم الآلة – التي تمثل أدوات الناقد العربي – ومن أهمّها علوم اللغة، والنحو، والدلالة، والبلاغة، وغيرها. وذلك على وجه – حسب ظنّنا – يقرّبنا كثيرًا من منهج المهتمين بالتعبير القرآني، كالجرجاني من القدماء، والدكتور فاضل السامرائي من المحدثين.
- إذا ذهبنا بمفهوم "الطباق" من المستوى المعجمي للألفاظ إلى المستوى السياقيّ، فإننا يمكن أن نجد دلالة طرفي الطباق، على شاكلة ما افترضناه، وأسميناه بـ"الطباق السياقيّ".
- إنّ أهم ما يلحظ على الطباق السياقيّ أنّه قد يذكر فيه طرفاه تارة، وقد يُكتفي بذكر طرف واحد، ويترك للمتلقي تقدير الآخر.
- إنّ مفهوم الطباق السياقيّ – على الوجه الذي قدمناه – قد تتأتى دلالته من السياق حصرًا، فتبدأ دلالته من الظاهرة اللغويّة، وتنتهي بالسياق، كما في المناوبة بين الاسم والفعل، أو الاختلاف في توظيف الأفعال.
- إنّ سبل تحقيق الطباق السياقيّ – التي أثبتناها في هذه الدراسة – لها دلالات كثيرة ومتنوعة، فصّلها العلماء من قبل، أثبتنا منها ما يحقق دلالة الطباق السياقيّ فحسب، وصرفنا النظر عن سواها.
- توقفنا عند دلالات الطباق السياقيّ، على شكليه: الإيجاب والسلب، ووجدنا إنّ هذه الدلالات السياقيّة إنّما هي حقول دلاليّة، وليست معاني محدّدة، الأمر الذي يتيح لتأويلها سعة، ربّما تختلف من متلقٍ لآخر.
- إنّ هذا البحث لم يستوف كلّ السبل التي تحقق الطباق السياقي– بحسب ما نرى– الأمر الذي دفعنا لحصر هذه السبل بدلالات الحرمة والثبات، والمتحقّقة في الجمل الفعليّة الجمل الاسمية.
- وجدنا أنّ أهميّة هذه الدراسة لا تقف عند هدفها، المتمثل بإثبات مفهوم الطباق السياقي فحسب، بل تهتم في السبل التي تحقق لنا هذا الهدف. لهذا فإننا نرى إمكانيّة توسيع هذه الدراسة في المستقبل – إن شاء الله تعالى– لكن ليس من أجل إثبات مفهوم الطباق السياق، وإنّما للوقوف على دلالات طرفيه؛ بغية تأمّل أكبر قدر ممكن من سبل تحقيق مظاهر الطباق.
- تعدّدت المصادر التي رجعنا إليها في دراستنا هذه، واختلفت في أصولها، إلى حقول: اللغة العربية، وتفسير القرآن الكريم، البلاغة، والنقد الأدبي.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري الشافعي (ت 468هـ) تحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح، الدّمام، ط2، 1992م.
- الأسلوبية وتحليل الخطاب، د. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري.
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين: البصريين والكوفيين، أبو البركات الأنباري (ت 577هـ)، المكتبة العصرية، ط1، 1424هـ، 2003م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (ت685هـ) تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418هـ.
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ابن هشام (ت761هـ) تحقيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،
- الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني، المعروف بخطيب دمشق (ت739هـ) تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط3.
- البلاغة الاصطلاحيّة، د. عبدة عبد العزيز قلقيله، دار الفكر العربي، القاهرة، ط3.
- البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حبنّكة، دار القلم بدمشق، ودار الشاميّة ببيروت، ط1، 1996م.
- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، ابن عاشور التونسي (ت 1393هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984هـ.
- سنن الترمذي، الترمذي، (ت279هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1975م.
- تفسير الشعراوي ، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، 1997م.
- التفسير الكبير، فخر الدين الرازي (ت606هـ) دار إحياء التراث، العربي، بيروت، ط3، 1420هـ،
- شرح شافية ابن الحاجب، حسن بن محمد بن شرف شاه الحسيني الأستراباذي، (ت715هـ) تحقيق د. عبد المقصود محمد عبد المقصود، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2004م.
- شرح التصريح على التوضيح، خالد بن عبد الله الأزهريّ، دار إحياء الكتب العربيّة.

شرح السنة، البغوي الشافعي (ت 516هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ط2، 1983م.

- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، أبو الفضل عياض السبتي، (ت544هـ)، دار الفيحاء، عمان، ط2، 1407هـ.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت:471هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط3، 1413هـ – 1992م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للآلوسي (ت 1270هـ)، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.
- في ظلال القران، سيّد قطب إبراهيم حسين الشاربي، دار الشرق، بيروت والقاهرة، ط17، 1412هـ،
- علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، د. صلاح فضل، كتاب النادي الأدبي الثقافي، جدّة، 1988م.
- علم البديع دراسة تاريخيّة لأصول البلاغة ومسائل البديع، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار، ط2، 2004م.
- علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربيّ، منقور عبد الجليل، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2001م.
- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي (ت745هـ)، المكتبة العنصريّة، بيروت، ط1، 1423هـ.
- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري (ت نحو 395هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية، بيروت، 1419 هـ.
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي (ت 1332هـ)، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، 1418 هـ.
- مفتاح العلوم، السكاكي (ت626هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1987م.
- المقتضب، لأبي العباس المبرد، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة، القاهرة، 1386هـ.
- من قضايا اللغة والنحو، د. أحمد مختار عمر، ط1، عالم الكتب، 1974م.
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي (ت 911هـ)، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقيّة، مصر.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي (ت885هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.